بسم الله الرحمن الرحيم

٤٣ ـ سورة الزخرف

سميت به لدلالة آيته على أن الدنيا فى غاية الخسة فى نفسها ، وغاية العداوة مع ربها ، بحيث لا تليق بالأصالة إلا لأعدائه . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . أفاده المهايمىّ . وهى مكية . قيل : إلا آية[1] (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ) وآيها تسع وثمانون .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٤٥] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ)

[٣] (إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى معانيه ومواعظه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ)

« وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ » أى رفيع القدر ، بحيث لا رفعة وراءها « حَكِيمٌ » أى ذو الحكمة الجامعة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ)

« أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ » أى أنهملكم ونصرف عنكم الذكر لإسرافكم . وإنما كانت الحاجة إلى الذكر للإسراف ، إذ لو كانوا على السيرة العادلة والطريقة الوسطى لما احتيج إلى التذكير . بل التذكير يجب عند الإفراط والتفريط . ولهذا بعث الأنبياء فى زمان الفترة . قاله القاشانىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ)

[٧] (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٨] (فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ)

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا » أى قوة « وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ » أى سلف فى القرآن فى غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم فى تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم . أى فليتوقع هؤلاء المستهزئون من العقوبة مثل ما حلّ بسلفهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ)

[١٠] (ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا » أى مهادا تستقرون عليها « وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا » أى طرقا تتطرقونها من بلدة إلى بلدة ، لمعايشكم ومتاجركم « لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » أى بتلك السبل إلى حيث أردتم من القرى والأمصار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ، كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ)

«وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ» أى بمقدار الحاجة إليه. فلم يجعله طوفانا يهلك،

ولا رذاذا لا ينبت، بل غيثا مغيثا « فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا » أى أحيينا به بلدة ميتا من النبات، قد درست من الجدب وعفت من القحط « كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ » أى من بعد فنائكم ومصيركم بالأرض .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ)

[١٣] (لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ)

[١٤] (وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ)

« وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا » أى خلق كل شىء فزوّجه، فجعل منه الذكر والأنثى « وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ » أى من السفن والبهائم ما تركبونه « لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ » أى مطيقين « وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ » أى لصائرون إليه ، وراجعون بعد مماتنا .

تنبيه :

فى (الإكليل) : فى الآية استحباب هذا الذكر عند ركوب الدابة والسفينة. وكان ﷺ يقوله كلما استوى على راحلته أو دابته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ، إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ)

«وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا» أى جعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نصيبا. وذلك

قولهم للملائكة (هم بنات الله) قال القاشانىّ : أى اعترفوا بأنه خالق السموات والأرض ومبدعهما وفاطرها . وقد جسموه وجزأوه بإثبات الولد له، الذى هو بعض من الوالد ،مماثل له فى النوع ، لكونهم ظاهريين جسمانيين ، لا يتجاوزون عن رتبة الحس والخيال،ولا يتجردون عن ملابس الجسمانيات ، فيدركون الحقائق المجردة والذوات المقدسة ، فضلا عن ذات الله تعالى . فكل ماتصوروا وتخيلوا ، كان شيئاً جسمانيا . ولهذا كذبوا الأنبياء فى إثبات الآخرة والبعث والنشور ، وكل مايتعلق بالمعاد . إذ لا يتعدى إدركهم الحياة الدنيا ، وعقولهم المحجوبة عن نور الهداية ، أمورَ المعاش . فلا مناسبة أصلا بين ذواتهم وذوات الأنبياء ، إلا فى ظاهر البشرية . فلا حاجة إلى ما وراءها . انتهى « إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ » أى لجحودٌ نعمَ ربه ، التى أنعمها عليه . يبين كفرانه لمن تدبر حاله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ)

« أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ » أى : بل اتخذ . والهمزة للإنكار تجهيلا لهم . وتعجيبا من شأنهم، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين وهو الإناث دون الذكور . على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث ، وأمقتهم لهن . ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن . كأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة ، فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط فى القسمة ، ومن ادعائكم أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما ، وترك له شرهما وأدناهما ؟ قاله الزمخشرىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا » أى من البنات « ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا » أى من الكآبة والغم والحزن « وَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء قلبه من الكرب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)

« أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ » أى تربى فى الزينة ، يعنى البنات « وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ » أى فى المجادلة « غَيْرُ مُبِينٍ » أى لمن خاصمة ببرهان وحجة ، لعجزه وضعفه . والمعنى : أومن كان كذلك جعلتموه جزءا لله من خلقه ، وزعمتم أنه نصيبه منهم ؟

تنبيه :

قال إلكيا الهرّاسىّ : فيه دليل على إباحة الحلىّ للنساء . وسئل أبو العالية عن الذهب للنساء ، فلم يَرَ به بأسا ، وتلا هذه الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ)

« وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا » أى جعلوا ملائكة الله الذين هم عنده ، يسبحونه ويقدسونه ، إناثا . فقالوا (هم بنات الله) جهلا منهم بحق الله سبحانه ، وجراءةً منهم على قيل الكذب .

قال القاشانىّ : لما سمعوا من أسلافهم قول الأوائل من الحكماء فى إثبات النفوس الملكية وتأنيثهم إياها ، إما باعتبار اللفظ وإما باعتبار تأثرها وانفعالها عن الأرواح المقدسة العقلية ، مع وصفهم إياها بالقرب من الحضرة الإلهية ـ توهموا أنوثتها فى الحقيقة ، التى هى بإزاء الذكورة فى الحيوان مع اختصاصها بالله . فجعلوها بنات . وقلما يعتقدها العامىّ إلا صوراً إنسية لطيفة فى غاية الحسن . انتهى . « أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ » أى أحضروا خلق الله إياهم فوصفوهم بذلك لعلمهم بهم وبرؤيتهم إياهم ؟ وهو تجهيل لهم ، وتهكم بهم « سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ » أى على الملائكة بما هم مبرّءون عنه « وَيُسْـَٔلُونَ » أى عنها يوم القيامة ، بأن

يأتوا ببرهان على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلا. وفيه من الوعيدما فيه. لأن كتابتها، والسؤال عنها ، يقتضي العقاب والمجازاة عليها ، وهو المراد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ، مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)

[٢١] (أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ)

«وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ» هذا بيان لضلال لهم آخر، فى جدلهم وخصامهم وتعنتهم . وقد استدل المعتزلة بظاهر الآية فى أنه تعالى لايشاء الشرور والمعاصى. وأهل السنة تأوّلوا الآية بما يلاقى العقد الصحيح . وهو عموم مشيئته تعالى لكل شىء ، الناطق به غير ما آية . ولما كانت هذه الآية وأخواتها من معارك الأنظار قديما وحديثا ، آثرت أن أنقل هنا مالمحققى المفسرين ، جرياً على قاعدتنا فى التقاط نفائس ما للمتقدم، وتحلية مصنفاتنا بها ، فنقول : قال القاشانىّ : لما سمعوا من الأنبياء تعليق الأشياء بمشيئة الله تعالى، افترضوه وجعلوه ذريعة فى الإنكار . وقالوا ذلك لاعن علم وإيقان ، بل على سبيل العناد والإفحام . ولهذا ردّهم الله تعالى بقوله (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ) إذ لو علموا ذلك لكانوا موحدين ، لا ينسبون التأثير إلا إلى الله . فلا يسعهم إلا عبادته دون غيره . إذ لا يرون حينئذ لغيره نفعا ولا ضرّا (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) لتكذيبهم أنفسهم فى هذا القول بالفعل ، حين عظموهم وخافوهم وخوّفوا أنبياءهم من بطشهم ، كما قال قوم هود[1] (إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ) ولمّاخوّفوا إبراهيم عليه السلام كيدهم، أجاب بقوله[2] (وَلَآ

---

(١) [١١ / هود / ٥٤] . (٢) [٦ / الأنعام / ٨٠] .

أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا) إلى قوله[1] (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ) انتهى .

وفى البيضاوىّ وحواشيه : إن هذا القول استدلال منهم على امتناع النهى عن عبادة غيره تعالى أو على حسنها . يعنون أن عبادتهم الملائكة بمشيئته تعالى . فيكون مأموراً بها أو حسنة. ويمتنع كونها منهيا عنها أو قبيحة. وهذا الاستدلال باطل . لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن ، لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض ، حسنا كان أو قبيحا . ولذلك جهلهم فى استدلالهم هذا . والحاصل أن الإنكار متوجه إلى جعلهم ذلك دليلا على امتناع النهى عن عبادتهم، أو على حسنها : لا إلى هذا القول. فإنه كلمة حق أريد بها باطل . انتهى.

وقال الناصر فى (الانتصاف) : نحن معاشر أهل السنة نقول: إن كل شىء بمشيئته تعالى، حتى الضلالة والهدى ، اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل . فى أمثال قوله تعالى[2] (يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ) وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدا ، ولا تفيده إلا تصويبا وتسديدا . فنقول : إذا قال الكافر (لو شاء الله ما كفرت) فهذه كلمة حق أراد بها باطلا ، أما كونها كلمة حق ، فلما مهدناه . وأما كونه أراد بها باطلا، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله، توهما أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل، أن لا يعاقبه على ذلك . لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته .

ثم قال : فإذا وضح ما قلناه، فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه. لأنهم توهموا أنها حجة على الله . فدحض الله حجتهم ، وأكذب أمنيتهم ، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال[3] (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) و(إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير . وذلك قوله تعالى

---

(١) [٦ / الأنعام / ٨١] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٣] و [٣٥ / فاطر / ٨] .
(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٠] .

فى سورة الأنعام[1] (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْشَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل ، والإشراك بالله ، اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم[1] (لَوْشَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا) فشبه تعالى حالهم فى الاعتماد على هذا الخيال ، بحال أوائلهم . ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب ، فقال[1] (إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) ثم لما أبطل أن يكون لهم فى مقالتهم حجة على الله ، أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله[2] (فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا فى احتجاجهم على الله بذلك . لا لأن المقالة فى نفسها كذب . فقال[2] (فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) وهو معنى قولهم (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا) من حيث أن (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة . فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم . بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا . فهذا هو الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والنور اللائح والمنهج الواضح . والذى يدحض به حجة هؤلاء ، مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم ، هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسرا للهداية وغيرها . من الأفعال الكسبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف . لأنها اختيارية . يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية . فهذه الآية أقامت الحجة . ووضحت ، لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة ، المحجة . ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم فى سلك الأفهام الكثيفة . فلا جرم أن أفهامهم تبددت . وأفكارهم تبدلت . فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه . وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار . وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطراب . أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطا .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٩] .

وأرشدهم إلى الطريق الوسطى . فانتهجوا سبل السلام . وساروا ورائد التوفيق لهم إمام . مستضيئين بأنوار العقول المرشدة ، إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته . ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة . لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة . لكنها قدرة تقارن بلا تأثير . وتميز بين الضروريّ والاختياريّ في التصوير . فهذا هو التحقيق . والله ولي التوفيق : انتهى .

وقد سبق في آية (الأنعام) نقولٌ عن الأئمة في الآية مسهبة : فراجعها إن شئت . وقوله تعالى(أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ)أي من قبل هذا القرآن (فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ)أي يعملون به ويدينون بما فيه ويحتجون به عليك . نظير قوله تعالى في الآية الأخرى[1](قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) يعني بالعلم كتابا موحى فيه ذلك . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ)

«بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ» أي لا حجة لهم إلا تقليد آبائهم ، الجهلة مثلهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ)

«وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ» أي كما فعل هؤلاء المشركون من دفاع الحجة بالتقليد ، فعل من قبلهم من أهل الكفر بالله .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٤٨] .

قال القاضى : وفيه تسلية له ﷺ ، ودلالة على أن التقليد فى نحو ذلك ضلال قديم ، وأن مقلديهم أيضا لم يكن لهم سند منظور فيه . وتخصيص المترفين ، إشعار بأن النعم وحب البطالة ، صرفهم عن النظر إلى التقليد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَٰلَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ، قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ)

« قَٰلَ » وقرئ قل « أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ » أى جاحدون منكرون ، وإن كان أهدى . إقناطا للنذير من أن ينظروا أو يتفكروا فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ)

« فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ » أى بعذاب الاستئصال « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ » أى آخر أمرهم ، مما أصبح مثلا وعبرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ » قال القاضى : أى اذكر وقت قوله هذا ، ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل . وليقلدوه إن لم يكن لهم بدّ من التقليد ، فإنه أشرف آبائهم « لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ » أى برىء من عبادتكم أو معبودكم . و (بَرَآءٌ) بفتح الباء الموحدة كما هو قراءة العامة ، مصدر كالطلاق والعتاق ، أريد به معنى الوصف مبالغة . فلذا أطلق على الواحد وغيره . وقرئ بضم الباء وهو اسم مفرد صفة مبالغة ، كطوال وكرام ، بضم الطاء والكاف . وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ)

« إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى » استثناء منقطع أو متصل . على أن (ما) يعمّ أولى العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام. أو (إلا) بمعنى (غير) صفة لـ(ما). أى إننى برىء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى . أى خلقنى « فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ » أى للدين الحق ، واتباع سبيل الرشد . والسين إما للتأكيد ، ويؤيده آية الشعراء (يَهْدِينِ) بدونها . والقصة واحدة ، والمضارع فى الموضعين للاستمرار. وإما للتسويف والاستقبال، والمراد هداية زائدة على ما كان له أولًا . فيتغاير ما فى الآيتين من الحكاية أو المحكىّ ، بناء على تكرر قصته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

«وَجَعَلَهَا» أى شهادة التوحيد « كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ » أى موصى بها ، موروثة متداولة محفوظة. كقوله تعالى[1] (وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أى لكى يرجعوا إلى عبادته ، ويلجأوا إلى توحيده فى سائر شؤونهم . أو لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحّد منهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ)

« بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ » يعنى أهل مكة « وَءَابَآءَهُمْ » أى من قبلهم بالحياة، فلم أعاجلهم على كفرهم « حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ » أى دعوة التوحيد أو القرآن « وَرَسُولٌ مُّبِينٌ » أى ظاهر الرسالة بالآيات والحجج التى يحتج بها عليهم فى دعوى رسالته .

---

(١) [٢ / البقرة / ١٣٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ)

«وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ» أى جاحدون . فازدادوا فى ضلالهم ، لضمهم إلى شركهم ، معاندة الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)

« وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ » أى من إحداها ، مكة والطائف . فالتعريف للعهد « عَظِيمٍ » أى بالجاه والمال . فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم عندهم . قال القاضى : ولم يعلموا أنها رتبة روحانية . تستدعى عظم النفس ، بالتحلّى بالفضائل والكمالات القدسية ، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٣٢] (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ » إنكار ، فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم فيما لا يتولّاه إلا هو تعالى . والمراد بالرحمة النبوّة « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى فجعلنا بعضهم غنيا وبعضهم فقيرا « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ » أى بالغنى « فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم » يعنى الغنى « بَعْضًا » يعنى الفقير « سُخْرِيًّا » أى مسخرا فى العمل ، وما به قوام المعايش ، والوصول إلى المنافع . لا لكمالٍ فى الموسّع عليه ، ولا لنقص فى المقتّر عليه . بل لحاجة التضامّ والتآلف ، التى بها ينتظم شملهم . وأما النفحات الربانية ، والعلوم اللدنية ،

فليست مما يستدعى سعة ويسارا . لأنها اختصاص إلهىّ ، وفيض رحمانىّ، يمنّ به على أنفس مستعدّيه ، وأرواح قابليه . و (السخرىّ) بالضم منسوب إلى السخرة بوزن (غرفة) وهى الاستخدام والقهر على العمل. « وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » يعنى أن النبوّة خير مما يجمعون من الحطام الفانى . أى : والعظيم من أعطيها وحازها ، وهو النبىّ ﷺ . لا من حاز الكثير من الشهوات المحبوبة . ثم أشار تعالى إلى حقارة الدنيا عنده ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)

[٣٤] (وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ)

[٣٥] (وَزُخْرُفًا ، وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)

« وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً » أى متفقة على الكفر بالله تعالى . أى لولا كراهة ذلك « لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ » أى لتكثير النعم عليه ، مع كفره بالمنعم فيزداد عذابا « لِبُيُوتِهِمْ » بدل من (لِمَن) « سُقُفًا » بفتح السين وسكون القاف، وبضمهما، جمعا « مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ » أى مصاعد من فضة « عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ » أى يرتقون « وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا » أى من فضة « وَسُرُرًا » أى من فضة « عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ وَزُخْرُفًا » أى : ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفا ، أى زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة . ثم أشار إلى أن لا دلالة فى ذلك على فضيلتهم بقوله « وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى : وما كل هذه الأشياء التى ذكرت، من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة، والزخرف، إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا فى الدنيا « وَٱلْأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » أى: وزين الدار

الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين ، أى الذين اتقوا الله فخافوا عقابه . فجدّوا فى طاعته وحذروا معاصيه خاصة دون غيرهم . قال المهايمىّ : يعنى لا خصوصية فى ذلك المتاع ، بحيث يدل عدمه على عدم منصب النبوة ، وإنما الذى يدل عدمه على عدم النبوة ، التقوى . فالنبوة إنما تكون لمن كمل تقواه . سواء كانت عنده الدنيا أم لا . وإنما كانت الزينة الدنيوية أحق بالكفار ، لأنها تثير ظلمة الأهوية المانعة من رؤية الحق . بحيث يصير صاحبها أعشى . انتهى .

تنبيه :

ما قدمناه من أن معنى (وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً) على تقدير (لولا كراهة ذلك) وأن معنى كونهم أمة واحدة اجتماعهم على أمر واحد وهو الكفر ، أى أن كراهة الاجتماع على الكفر هى المانعة من تمتيع الكافر بها على الوجه المذكور ـ هو ماذكره المفسرون . فورد عليه أنه حين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ فأجيب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا ، لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا . والدخولُ فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين. فكانت الحكمة فيما دبر حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء . وغلب الفقر على الغنى . هذا ما قاله الزمخشرىّ .

وعندى أن لا حاجة لتقدير الكراهة . وأن معنى الآية غير ماذكروه . وذلك أن المعنى: لولا أن يكونوا خلقوا ليكونوا أمة واحدة ، للتوافد والتعاون والتضامّ ، ومابه قوام حياتهم كالجسم الواحد ، لجعلنا للناس ماذكر من الزين والحلىّ لدخوله تحت القدرة الكاملة . إلا أن ذلك مبطل للحكمة ومخرب لنظام الوجود . وإنما عبّر عن الناس بمن يكفر بالرحمن ، رعاية للأكثر وهم الكفار ؛ فإنهم الذين طبقوا ظهر الأرض وملأوا وجهها . وحطًّا لقدر الدنيا وتصغيرا لشأنها ، بأن تؤتى لمن هو الأدنى منزلة . والأخس قدرا . وخلاصة المعنى : أن خلقهم

أمة واحدة مدنيين بالطبع ، مانع من بسط الدنيا عليهم جميعهم . وهذا هو معنى (لولا) المطرد ، أن مابعدها أبدا مانع من جوابها . ولذلك يقولون (حرف امتناع لوجود) .

فليس المعنى على ما ذكروه أبدا كما يظهر واضحا لمن أنعم النظر . وبالجملة ، فالآية هـذه تتمة لما قبلها ، فى جواب أولئك الظانين ، أن العظمة الدنيوية تستتبع النبوة . فبين تعالى حكمته فى تفاوت الخلق فى الآية الأولى . وهى التسخير . وفى الثانية حقارة الدنيا عنده وأنه لولا التسخير لآتاها أحط الخلق وأبعدهم منه ، مبالغة فى الإعلام بضعتها . وهذا مصداق ماورد من أن الدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة ، وأن ما عنده خير وأبقى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ)

« وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ » أى يعرض عنه ، فلم يخفْ سطوته ولم يخش عقابه « نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ » أى نجعل له شيطانا يغويه ويضله عن السبيل القويم دائما ، لمقارنته له . قال القاشانىّ : قرئ (يعش) بضم الشين وفتحها : والفرق أن عشا يستعمل إذا نظر نظر العَشَى لعارض أومتعمدا ، من غير آفة فى بصره . وعَشِيَ إذا إيف بصره . فعلى الأول معناه : ومن كان له استعداد صافٍ وفطرة سليمة لإدراك ذكر الرحمن ، أى القرآن النازل من عنده وفهم معناه . وعلم كونه حقا ، فتعامى عنه لغرض دنيوىّ وبغى وحسد ، أولم يفهمه ولم يعلم حقيقته ، لاحتجابه بالغواشى الطبيعية ، واشتغاله باللذات الحسية عنه ، أو لا غتراره بدينه وماهو عليه من اعتقاده ومذهبه الباطل (نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا) جنيّا فيغويه بالتسويل والتزيين لما انهمك فيه من اللذات ، وحرص عليه من الزخارف . أوبالشبه والأباطيل المغوية لما اعتكف عليه بهواه من دينه . أوإنسيا يغويه ويشاركه فى أمره ويجانسه فى طريقه ويبعده عن الحق . وعلى الثانى معناه . ومن إيف استعداده فى الأصل ، وشق فى الأزل بعمى القلب عن إدراك حقائق الذكر ، وقصّر عن فهم معناه (نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا) من نفسه أوجنسه ، يقارنه فى ضلالته وغوايته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)

« وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ » قال ابن جرير[1] : أى : وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله ، عن سبيل الحق ، فيزينون لهم الضلالة ، ويكرهون لهم الإيمان بالله ، والعمل بطاعته. « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » أى يظن هؤلاء المشركون بالله ، بتزيين الشياطين لهم ما هم عليه ، أنهم على الصواب والهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ)

« حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا » أى العاشى « قَالَ » أى لشيطانه « يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ » أى بعد المشرق من المغرب . فغلب المشرق على المغرب ، ثم ثنى . وقيل المراد مشرقا الصيف والشتاء . والتقدير من المغربين ، فاختصر . « فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ » قال القاشانىّ : أى حتى إذا حضر عقابنا اللازم لاعتقاده وأعماله ، والعذاب المستحق لمذهبه ودينه ، تمنى غاية البعد بينه وبين شيطانه الذى أضله عن الحق ، وزيّن له ماوقع بسببه فى العذاب ، واستوحش من قرينه واستذمه ، لعدم الوصلة الطبيعية ، أو انقطاع الأسباب بينهما بفساد الآلات البدنية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)

« وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ » قال القاشانىّ : أى لن ينفعكم التمنى وقت حلول العذاب واستحقاق العقاب . إذا ثبت وصح ظلمكم فى الدنيا ، وتبين عاقبته ، وكشف عن حاله . لأنكم مشتركون فى العذاب لاشتراككم فى سببه .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

أو ولن ينفعكم كونكم مشتركين فى العذاب من شدته وإيلامه . أى كما ينفع الواقعين فى أمر صعب ، معاونتهم فى تحمل أعبائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)

« أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم . وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده تعالى . وقد تكرر فى التنزيل التعبير عنهم بالصم العمى الضلال ، لأنه لا أجمع من ذلك لشرح حالهم ، ولا أبلغ منه . إذ سلبوا استماعَ حجج الله وهداه ، كالأصم . وإبصارَ آيات الله والاعتبار بها ، كالأعمى . وقصدَ السبيل الأمم ، كالضالّ الحائر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ)

« فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ » أى نقبضك قبل أن نظهرك عليهم « فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ » أى بالعذاب الأخرويّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ)

« أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ » وهذا كقوله تعالى[1] (فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) وفى تعبيره بالوعد ، وهو لا يخلف الميعاد ، إشارة إلى أنه هو الواقع . وهكذا كان . إذ لم يفلت أحد من صناديدهم ، إلا من تحصّن بالإيمان .

(١) [٤٠ / غافر / ٧٧] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

« فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » يعنى دين الله الذى أمر به وهو الإسلام . فإنه كامل الاستقامة من كل وجه . قال الشهاب : هذا تسلية له ﷺ وأمر لأمته أو له ، بالدوام على التمسّك . والفاء فى جواب شرط مقدّر . أى إذا كان أحد هذين واقعاً لا محالة ، فاستمسك به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ)

« وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ » أى وإن الذى أوحى إليك لشرف لك ولقومك من قريش . لما خصهم به من نزوله بلسانهم . أو المراد بقومه ، أتباعه. أى تنويه بقدرك وبقدر أمتك ، لما أعطاه لهم بسببه من العلوم والمزايا والخصائص والشرائع الملائمة لسائر الأحوال والأزمان . وجوّز أن يراد بالذكر الموعظة « وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ » أى عما عملتم فيه ، من ائتماركم بأوامره ، وانتهائكم عن نواهيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ)

«وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ» أى : هل حكمنا بعبادة الأوثان ؟ وهل جاءت فى ملة من مللهم ؟ قال القاضى : والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس ببدع ابتدعه ، فيكذب ويعادى له . انتهى .

والذين أمر بمسألتهم الرسول ﷺ ، هم مؤمنو أهل الكتابين التوراة والإنجيل . فالكلام بتقدير مضاف . أى أممهم المؤمنين . أو يجعل سؤالهم بمنزلة سؤال أنبيائهم . لأنهم إنما يخبرونه عن كتب الرسل . فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ » أى المصدقة له « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » لينهاه عن الاستعباد « وَمَلَإِيْهِۦ » أى لينهاهم عن التعبّد له « فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أى فأبان أنه لايستحق العبادة غيره تعالى ، وأن ليس لأحد سواه استعباد ، لأنها حق الربوبية المطلقة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ)

« فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ » فلما أتاهم بالحجج على التوحيد والبراءة من الشرك ، إذا فرعون وقومه يضحكون . أى كما أن قومك ، مما جئتهم به من الآيات والعِبَر ، يسخرون . وهذا تسلية من الله عز وجل لنبيّه ﷺ ، عما كان يلقى من مشركى قومه . وإعلام منه له أن قومه من أهل الشرك ، لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله . وندب منه نبيّه ﷺ إلى الاستنان بهم ، بالصبر عليهم ، بسنن أولى العزم من الرسل . وإخبار منه له أن عقبى مَرَدَّتهم إلى البوار والهلاك . كسنته فى المتمردين عليهم قبله ، وإظفاره بهم ، وإعلائه أمره . كالذى فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به . من إظهارهم على فرعون وملئه . أفاده ابن جرير[1] .

(١) انظر الصفحة رقم ٧٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

ثم أشار إلى أن موجب الهزء لم يكن إلا لعنادٍ ، لا لقصورها ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[٤٩] (وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)

[٥٠] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ)

« وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا » أى السابقة عليها « وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ » أى الدنيوىّ كالسنين ، مما يلجىء إلى الرجوع ، ولا أقل من رجائه « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ » أى من أنه لا يعذّب مَن آمن بك ليكشف عنا العذاب « إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ » أى بما تزعم أنه الهداية « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ » أى العهد الذى عاهدوا عليه ، ويتمادون فى غيهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

[٥٢] (أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)

[٥٣] (فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

« وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ » يعنى أنهار النيل « أَفَلَا تُبْصِرُونَ » أى ما أنا فيه من النعيم والخير ، وما فيه موسى من الفقر « أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ » أى ضعيف لا شىء له من المُلك

والأموال « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » أى الكلام ، لمخالفة اللغة العبرانية اللغة القبطية « فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » أى يعينونه ويصدقونه.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ)

[٥٥] (فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ)

« فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ » أى فاستفزهم بهذه المغالطات، وحملهم على أن يخفّوا له ويصدقوه « فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا » أى أغضبونا بطاعة عدونا وقبول مغالطاته بلا دليل ، وتكذيب موسى وآياته ، ونداته بالساحر ، ونكث العهود « ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ » وذلك لاستغراقهم فى بحر الضلال، الأجيال الطوال، وعدم نفع العظة معهم بحال من الأحوال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ)

[٥٧] (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ)

[٥٨] (وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)

« فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا » أى حجة للهالكين بعدهم « وَمَثَلًا » أى عبرة « لِّلْءَاخِرِينَ » أى الناجين « وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » أى فى كونه كآدم ، كما أشارت له آية[1] (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) والمعنى: لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة ، عبادته كفر ، ودعاؤه شرك ، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ » أى من مَثَلَه المضروب ووصفه المبين « يَصِدُّونَ » أى يعرضون ولا يعون « وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ » يعنون بآلهتهم الملائكة الذين عبدوهم،

(١) [٣ / آل عمران / ٥٩] .

زعما منهم أنهم بنات الله تعالى . كما ذكر عنهم ذلك فى أول السورة . أى أنهم خير من عيسى وأفضل ، لأنهم من الملأ الأعلى والنوع الأسمى ، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى ، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة . كأنهم يقررون على شركهم أصولا صحيحة . ويبنون على تمسكهم أقيسة صريحة . وغفلوا ، لجهلهم ، عن بطلان المقيس والمقيس عليه . وأن البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى ، وعلى استحالة التوالد فى ذاته العلية . وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال ، والمشاغبة بالجدال . كما قال تعالى « مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا » أى ماضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة ، لاعن اعتقاد ، لظهور بطلانه « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » أى شديدو الخصومة بالباطل تمويها وتلبيسا . وفى الحديث[1] (ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) وماذكرناه فى تفسير هذه الآية ، هو الجلى الواضح ، لدلالة السياق والسباق . ثم فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف . ثم جلى شأن عيسى عليه السلام ، بما يرفع كل لبس ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

« إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ » أى بالنبوة والرسالة « وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » أى آية لهم وحجة عليهم ، بما ظهر على يديه ، مما أيد نبوته ورسالته وصدق دعواه

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ)

« وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم » أى بدلكم « مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ » أى يكونون مكانكم . إيعاد لهم بأنهم فى قبضة المشيئة فى إهلاكهم ، وإبدال من هو خير منهم .

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٤٣ ـ سورة الزخرف ، عن أبى أمامة.

كما فى قوله تعالى[1]: (وَإِن نَّتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوَاْ أَمْثَلَكُمْ) وقيل معنى (لَجَعَلْنَا مِنكُم) لولدنا منكم ملائكة ، كما ولدناعيسى من غير أب ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة . واللفظ الكريم يحتمله . إلا أن الأظهرهو الأول ، لماجرتْ به عادة التنزيل، من خواتم أمثال ما تقدم ، بنظائر هذا الوعيد ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِنَّهُ و لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ، هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

[٦٢] (وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ، إِنَّهُ و لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« وَإِنَّهُ و لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ » الضمير إماللقرآن كما ذهب إليه قوم ، أىوإن القرآن الكريم يعلم بالساعة ويخبر عنها وعن أهوالها . وفى جعله عين العلم ، مبالغة . والعلم بمعنى العلامة . وقيل الضمير لعيسى عليه السلام . أى إن ظهوره من أشراط الساعة . ونزوله إلى الأرض فى آخر الزمان دليل على فناء الدنيا . وقال بعضهم : معناه أن عيسى سبب للعلم بها . فإنه هو ومعجزاته من أعظم الدلائل على إمكان البعث . فالآية مجاز مرسل علاقته المسببية . إذ أطلق المسبب وهو العلم ، وأراد السبب وهو عيسى ومعجزاته . كقولك (أمطرت السماء نباتا) أى مطرا يتسبب عنه النبات. وقرئ (وَإِنَّهُ و لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ) بفتحتين . أى أنه كالجبل الذى يهتدى به إلى معرفة الطريق ونحوه . فبعيسى عليه السلام يهتدى إلى طريقة إقامة الدليل على إمكان الساعة وكيفية حصولها . انتهى . وهو جيد « فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ » أى اتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى . أو هو أمر للرسول أن يقوله « هَـٰذَا » أى القرآن ، أو ما أدعوكم إليه « صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى عن الاتباع « إِنَّهُ و لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .

---

(٢) [٤٧ / محمد / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ)

[٦٤] (إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ، هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ)

«وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ » أى من أحكام التوراة وغيرها. كاختلاف اليهود فى القيامة، لعدم صراحتها فى كتبهم . وقد جاء فى نحوها آية[1] (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) وقد وضع عن اليهود شيئاً من إصْر التوراة وأغلال الناموس ، كما فعل فى يوم السبت . خفف شدّة حكمه .

قال بعض المحققين : وإنما لم يقل (ولأبين لكم كل ما تختلفون فيه) لأنه لم يفعل ذلك . بل ترك بيان كثير من الأشياء، كالفساد الذى دخل فى أغلب كتبهم للفارقليط (محمد ﷺ) الذى يأتى بعده ، لعدم استعداد الناس فى زمنه لقبول كل شىء منه . كما قال هو نفسه فى (إنجيل يوحنا) فى الإصحاح السادس عشر . وخصوصاً إذا تعرّض للطعن فى كتبهم ، وهى رأس مالهم الوحيد وتراث أجدادهم . ولو فعل ذلك لشكّ فيه الكثيرون منهم وكذّبوه ، ولما اتبعه إلا الأقلون أو النادرون ، فتضيع الفائدة من بعثته التى بيناها فى المتن . وهى التى بعث من أجلها .

وأما قول الله تعالى عن لسانه[1] (وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ) فالمراد بمثل هذا التعبير ، أنه بمجيئه عليه السلام تحققت نبوات التوراة عنه ، وبه صحت وصدقت . وكلمة (التوراة) تطلق على كتب العهد القديم . فالمعنى أن مجىء عيسى كان وفق ما أنبأ به النبيون عنه من قبل . ولولاه لما صدقت تلك النبوات ، فإنها لا تنطبق إلا عليه . وليس المراد أن

(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

عيسى يقرّ كل ما فى التوراة ، كما يتوهم النصارى الآن من مثل هذه الآية. وإلا لما قال بعدها مباشرة[1] (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) فكيف يقرّها وهو قد جاء ناسخا لبعض ما فيها ؟ فتدبر ذلك ولا تكن كهؤلاء الذين يهرفون بما لايعرفون . ويفسرون ما لا يفهمون . انتهى كلامه . وهو وجيه جدا .

« فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ » قال ابن جرير[2]: أى إن الله الذى يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له ، ربى وربكم جميعا . فاعبدوه وحده لاتشركوا معه فى عبادته شيئا . فإنه لايصح ولا ينبغى أن يعبد شىء سواه « هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ » أى هذا الذى أمرتكم به ، من اتقاء الله وطاعتى ، وإفراد الله بالألوهية ، هو الطريق القويم . وإذا كان هذا قول عيسى عليه السلام ، فلا عبرة بقول الملحدين فيه والمفترين عليه ما لم يقله . ثم أشار إلى وعيد من خالف الحق بعد وضوحه ، بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ)

« فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ » أى الفرق المتحزبة اختلافاً نشأ « مِنۢ بَيْنِهِمْ » أى لا من قوله تعالى، ولا من قول عيسى. بل ظلما وعنادا « فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ » أى مؤلم من شدة الأهوال وكثرة الفضائح، وظلمهم بترك النظر فى الدلائل العقلية والنقلية.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٦٧] (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ)

(١) [٣ / آل عمران / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبى الثانية) .

« هَلْ يَنظُرُونَ » أى قريش « إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ » أى المتخالُون على المعاصى والفساد، والصدّ عن الحق يوم القيامة « بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى معادٍ ، يتبرأ كل من صاحبه « إِلَّا الْمُتَّقِينَ » أى المتصادقين فى طاعة الله ومحبته . قال القاشانىّ : الخلة إما أن تكون خيرية ، أوْ لا. والخيرية إما أن تكون فى الله أو لله ومحبته. وغير الخيرية إما أن يكون سببها اللذة النفسانية أو النفع العقلىّ. والقسم الأول هو المحبة الروحانية الذاتية المستندة إلى تناسب الأرواح فى الأزل، التى قال[1] فيها (فما تعارف منها ائتلف) فهم إذا برزوا فى هذه النشأة ، وتوجهوا إلى الحق ، وتجددوا عن مواد الرجس ، فلما تلاقوا تعارفوا، وإذا تعارفوا تحابوا، لتجانسهم الأصلى ، وتوافقهم فى الوجهة والطريقة، وتشابههم فى السيرة والغريزة ، وتجردهم عن الأغراض الفاسدة والأعراض الذاتية، التى هى سبب العداوة . وانتفع كل منهم بالآخر فى سلوكه وعرفانه . والتذ بلقائه ، وتصفى بصفائه ، وتعاونوا فى أمور الدنيا والآخرة . فهى الخلة التامة الحقيقية التى لا تزول أبدا كمحبة الأنبياء والأصفياء والأولياء والشهداء . والقسم الثانى هو المحبة القلبية المستندة إلى تناسب الأوصاف والأخلاق والسير الفاضلة . ونشأته الاعتقادات والأعمال الصالحة. كمحبة الصلحاء والأبرار فيما بينهم . ومحبة العرفاء والأولياء إياهم . ومحبة الأنبياء أممهم . والقسم الثالث هو المحبة النفسانية المستندة إلى اللذات الحسية والأغراض الجزئية . كمحبة الأزواج لمجرد الشهوة . ومحبة الفجار والفساق المتعاونين فى اكتساب الشهوات واستلاب الأموال . والقسم الرابع هو المحبة العقلية المستندة إلى تسهيل أسباب المعاش ، وتيسير المصالح الدنيوية . كمحبة التجار والصناع . ومحبة المحسَن إليه للمحسن . فكل ما استند إلى غرض فانٍ وسبب زائل ، زال

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢ ـ باب الأرواح جنود مجندة ، الحديث رقم ١٥٧٦ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم فى : ٤٥ ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٥٩ (طبعتنا).

بزواله ، وانقلب عند فقدانه عداوة . لتوقع كل من المتحابين ما اعتاد من صاحبه ، من اللذة المعهودة والنفع المألوف . وامتناعه لزوال سببه . ولما كان الغالب على أهل العالم أحد القسمين الأخيرين، أطلق الكلام وقال (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ) لانقطاع أسباب الوصلة بينهم، وانتفاء الآلات البدنية عنهم، وامتناع حصول اللذة الحسية والنفع الجسمانى وانقلابهما حسرات وآلاما وضررا وخسرانا. قد زالت اللذات والشهوات، وبقيت العقوبات والتبعات. فكل يمقت صاحبه ويبغضه. لأنه يرى مابه من العذاب، منه وبسببه. ثم استثنى المتقين المتناولين للقسمين الباقيين لقلتهم ، كما قال[1] (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)[2] (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ) ولعمرى، إن القسم الأول أعز من الكبريت الأحمر. وهم الكاملون فى التقوى، البالغون إلى نهايتها ، الفائزون بجميع مراتبها . ويليهم القسم الثانى . وكلا القسمين ، لاشتراكهما فى طلب مرضاة الله وطلب ثوابه واجتناب سخطه وعقابه ، نسبهم سبحانه إلى نفسه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)

« يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ » أى لأمنهم من العذاب « وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ » أى على فوات لذات الدنيا . لكونهم على ألذ منها وأبهج ، وأحسن حالا وأجمل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

(ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ)

«ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا» أى صدقوا بكتاب الله ورسله، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم « وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ » أى أهل خضوع لله بقلوبهم ، وقبول منهم لما جاءتهم به رسلهم عن ربهم ، على دين إبراهيم عليه السلام ، حنفاء ، لا يهود ولا نصارى ولا أهل أوثان .

(١) [٣٨ / ص ٢٤] . (٢) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ)

« ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ » أى تُسَرُّون سرورا يظهر حِبَاره ، أى أثره على وجوهكم ، كقوله تعالى[1] (تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ، وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

[٧٢] (وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » الصحاف جمع (صحفة) وهى آنية الأكل . والأكواب جمع (كوب) وهو ما يشرب منه كالكوز . إلا أن الكوب ما لا عروة له . قال الشهاب : العروة ما يمسك منه ويسمى أذنا . ولذا قال من ألغز فيه :

وذى أُذُنٍ بلا سمعٍ له قلبٌ بلا قَلْبِ
إذا استولى على صَبٍّ فقل ما شئتَ فى الصبِّ

ومن اللطائف هنا ما قيل : إنه لما كانت أوانى المأكولات أكثر بالنسبة لأوانى المشروب عادة ، جمع الأول جمع كثرة ، والثانى جمع قلة . « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ » أى بمشاهدته « وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى من الخيرات والأعمال الصالحات . وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة ، من الجنة ونعيمها الباقى لهم ، بما يخلفه المرء لورّاثه من الأملاك والأرزاق . ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورَّث (على صيغة اسم الفاعل) فهو استعارة تبعية أو تمثيلية .

(١) [٨٣ / المطففين / ٢٤] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ)

« لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ » أى ما اشتهيتم . و (من) إما ابتدائية أو تبعيضية . ورجح بدلالته على كثرة النعم ، وأنها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وأنها مزينة بالثمار أبدا ، موقرة بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)

[٧٥] (لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ » أى الذين اجترموا الكفر والمعاصى فى الدنيا « فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ » أى لا يخفّف ولا ينقص « وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى مستسلمون يائسون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » أى بهذا العذاب « وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ » أى بكفرهم الله وجحودهم توحيده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ)

[٧٨] (لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)

« وَنَادَوْا » أى بعد إدخالهم جهنم « يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » أى ليمتنا . أى سله أن يفعل بنا ذلك . تمنوا تعطل الحواس وعدم الإحساس ، لشدّة التألم بالعذاب الجسمانىّ .

« قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ » أى لابثون « لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ » أى لاتقبلونه وتنفرون منه . وعبّر (بالأكثر) لأن من الأتباع من يكفر تقليدا .

لطيفة :

قال القاشانىّ : سمى خازن النار (مالكا) لاختصاصه بمن ملك الدنيا وآثرها . لقوله تعالى[1] (فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَىٰ) كما سمى خازن الجنة (رضوانا) لاختصاصه بمن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

« أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ » أى أم أبرم مشركو مكة أمراً فأحكموه ، يكيدون به الحق الذى جاءهم ، فإنا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلهم ، من النكال . كقوله تعالى[1] (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ الْمَكِيدُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ، بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)

« أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم » أى ما أخفوه من تناجيهم بما يمكرون ، فلا نجازيهم عليه لخفائه علينا « بَلَىٰ » أى نسمعهما ونطّلع عليهما « وَرُسُلُنَا » يعنى الحفظة « لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ » أى ما تكلّموا به ولفظوا من قول . ثم أشار إلى ردّ إفكهم فى أن الملائكة بنات الله تعالى ، ختما للسورة مما بدئت به ، المسمى عند البديعيين (رد العجز على الصدر) فقال سبحانه :

---

(١) [٧٩ / النازعات / ٣٧ـ٣٩] . (٢) [٥٢ / الطور / ٤٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)

« قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ » أى لذلك الولد . والأولية بالنسبة إلى المخاطبين ، لا لمن تقدّمهم . قال الشهاب : ولو أبقى على إطلاقه ، على أن المراد إظهار الرغبة والمسارعة ، جاز . انتهى .

قال القاشانىّ : وهذا إما أن يدل على نفى الولد عن الله سبحانه بالبرهان ، وإما أن يدل على نفى الشرك عن الرسول بالمفهوم . أما دلالته على الأول ، فلما دلّ قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

« سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » على نفى التالى . وهو عبادة الولد . أى أوحّده وأنزّهه تعالى عما يصفونه من كونه مماثلًا لشىء . لكونه ربًّا خالقاً للأجسام كلها . فلا يكون من جنسها . فيفيد انتفاء الولد على الطريق البرهانىّ . وأما دلالته على الثانى فإذا جعل قوله (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ) الخ من كلام الله تعالى ، لا من كلام الرسول ، (أى نزّه رب السموات عما يصفونه) فيكون نفيا للمقدم ويكون تعليق عبادة الرسول من باب التعليق بالمحال . والمعلق بالشرط عند عدمه فحوى بدلالة المفهوم ، أبلغ عند علماء البيان من دلالة المنطوق . كما قال فى استبعاد الرؤية[1] (فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى) . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ)

« فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا » أى فى باطلهم « وَيَلْعَبُوا » أى فى دنياهم « حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ

(١) [٧ / الأعراف / ١٤٣] .

ٱلَّذِى يُوعَدُونَ » قال ابن جرير[1] : وذلك يوم يُصْليهم الله بفريتهم عليـــه ، جهنم ، وهو يوم القيامة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ، وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ)

« وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ » أى المعبود فيهما بلا شريك « وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ » أى فى تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء بمصالحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[٨٦] (وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

« وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ » أى الشفاعة لهم عند الله ، كما زعموا أن أندادهم شفعاء « إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى من آمن بالله وأقرّ بتوحيده ، وهم يعلمون حقيقة توحيده . أى وحّدوه وأخلصوا له على علم منهم ويقين ، كقوله[2] (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ) قال ابن كثير : هـــذا استثناء منقطع . أى لـكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له . اهـ .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٤ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .
(٢) [٢١ / الأنبياء / ٢٨] .

تنبيه :

قال الشهاب : استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الشهادة لا تكون إلا عن علم ، وأنها تجوز وإن لم يشهد .

وفى (الإكليل) قال إلكيا : يدل قوله تعالى (إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) على معنيين : أحدهما ـ أن الشهادة بالحق غير نافعة إلا مع العلم ، وأن التقليد لا يغنى مع عدم العلم بصحة المقالة . والثانى ـ أن شرط سائر الشهادات فى الحقوق وغيرها، أن يكون الشاهد عالما بها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)

« وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » أى : خلقنا لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره « فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » أى يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ)

« وَقِيلِهِ » أى قيل محمد صلوات الله عليه، شاكيا إلى ربه تبارك وتعالى ، قومه الذين كذبوه وما يلقى منهم « يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ » أى الذين أمرتنى بإنذارهم، وأرسلتنى إليهم لدعائهم إليك « قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ » أى بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر . كقوله تعالى(١) (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)

---

(١) [٢٥ / الفرقان / ٣٠] .

« فَاصْفَحْ » أى أعرض « عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ » أى لكم أو عليكم . أو أمرى سلام . أى متاركة ، فهو سلام متاركة لا تحية .

وقال الرازىّ : احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر . ثم قال : إن صح هذا الاستدلال فإنه يوجب الاقتصار على مجرد قوله (سلام) وأن يقال للمؤمن (سلام عليكم) والمقصود التنبيه على التحية التى تذكر للمسلم والكافر . اه .

وفيه نظر ، لأنه جمود على الظاهر البحت هنا ، والغفلة عن نظائره . من نحو قول[1] إبراهيم عليه السلام لأبيه (سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى) وآية[2] (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ) على أن الأكثر على أن الخبر هنا محذوف ، أى (عليكم) والمقدر كالمذكور ، والمحذوف لعلة كالثابت . فالصواب أن السلام للمتاركة . والله أعلم « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أى حقية ما أرسلت به ، بسموّ الحق وزهوق الباطل .

تنبيه :

قرئ (وقيلَه) بالنصب عطفا على (سرّهم ونجواهم) وضعّف بوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، بما لا يحسن اعتراضا . أو على محل (الساعة) لأنه فى محل نصب ، لأنه مصدر مضاف لمفعوله . أو بإضمار فعله . أى وقال قيله . وقرئ بالجر عطفا على (الساعة) أو الواو للقسم والجواب محذوف . أى لأفعلن بهم ما أريد ، أو مذكور وهو قوله (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ) وقرئ بالرفع عطفا على (علم الساعة) بتقدير مضاف . أى وعنده علم قيله . أو مرفوع بالابتداء ، وجملة (يارب) الخ هو الخبر . أو الخبر محذوف . أى وقيله كيت وكيت ، مسموع أو مقبل . وفى (الحواشى) مجازيات جدلية . فازدد بمراجعتها علما .

---

(١) [١٩ / مريم / ٤٧] . (٢) [٢٨ [القصص / ٥٥] .